

التجربة المعجمية في فكر ابن حزم الأندلسي (ت 456 هـ) *

د. محمد بن عمر

جامعة تلمسان

الملخص :

يعد فصل ابن حزم الأندلسي الموسوم بـ : تفسير ألفاظ تجري بين المتكلمين في الأصول " تجربة لغوية رائدة عنده في الحقل المعجمي الخاص بأهل النظر, و هي في الوقت نفسه تشمل عملا من الأعمال الإبداعية الأصلية في فكره , و حلقة علمية من الحلقات الكثيرة التي أسست لطبيعة الفكر الموسوعي لديه , و ذلك لما حوته من ألفاظ هي في غاية الأهمية من حيث الإسلامي و القرآن الكريم و السنة الشريفة و الفقه و اللغة و علم البلاغة الدلالة و الفلسفة و الأخلاق . فما هي _ إذا _ منهجيته , ووسائله الفكرية و الجمالية والأدبية التي مكنت لهذا العمل المعجمي الرائد على الرغم من أنه كان ظاهريا لا يأخذ برأي الباطنية ؟

يقول د. إحسان عباس: إن هذا الفصل وهو يقصد "تفسير ألفاظ تجري بين المتكلمين في الأصول" بأنه قد ورد لاحقا للكتاب الموسوم بالتقريب, وذلك في مخطوطه إزمير (1) ، ويضيف بأنه تعميقا للفائدة ارتأى أن يلحقه بما طبعه من رسائل ابن حزم , وبالذات في الجزء الرابع الذي نشرته المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت في طبعتها الأولى من عام 1983 م. و يحدد د. إحسان مصدرية هذا الفصل في مؤلفات ابن حزم فيقول: " وهو كما نص ناسخه مأخوذ من كتاب النبذ الكافية في أصول أحكام الدين. وهذه التعريفات موجودة في كتاب الأحكام 35/1 - 51 , وعنوان الفصل هنالك:" في الألفاظ الدائرة بين أهل النظر " (2).

وبغض النظر عن الاختلافات الواردة في عنوان هذا الفصل _ و لعل ذلك من صنع النساخ- فإن مضمون هذا الجزء من كتابه ,مضمون معجمي قصد فيه المؤلف إلى استظهار وتفسير وشرح مجموعة من الألفاظ تداولها المتكلمون فيما بينهم .
و للتذكير فإن ابن حزم في هذا الفصل لم يقدم له بما يكشف عن رؤيته المعرفية بخصوص الإقدام على هذا الاختيار , وبخاصة إذا علمنا أن المتكلمين باطنية , وأن ابن حزم كان ظاهريا - يأخذ بظاهر النص - ومن هنا لا يستبعد أن يكون السبب الذي دفعه إلى ذلك هو محاولة الكشف عن باعه الطويل في هذا التخصص , ومجارة المتكلمين فيه , والتخلص ولو إلى حين من قساوة الظاهر التي كانت تكبح جماح خياله وتفكيره الواسع .
ويعد هذا الفصل بالمقارنة مع فصول رسائله الأخرى محاولة رائدة تمثل تصورا لنظرية المعجم لديه , جمع فيه ستة وسبعين مصطلحا (3) منها المفرد كالإجماع (4) والاستدلال (5) والحق (6) ومنها المركب كالفرض و الواجب و اللازم والحتم (7) واسم المعصية والطاعة (8).وبعملية حسابية بسيطة نستطيع أن نتبين كل واحد من ذلك, وهو كالآتي:

- المصطلحات المفردة و يبلغ عددها سبعين مصطلحا.
- المصطلحات المركبة و يبلغ عددها ستة مصطلحات .

و يلاحظ أن ابن حزم في هذا العمل المعجمي لم يراع ترتيبا معيننا بحسب الحروف , باستثناء بعض الحالات التي كان يشرح فيها لفظا ويلحقه بمشتقاته وهي حالات قليلة جدا كقوله: (البيان) (9) و (التبيين و الإبانة (10) , ولعلها حالات اعتباطية لم يقصد إليها , وإنما استدعاها جنس الكلام. وبالمقابل يظهر أنه كان يأتي بلفظ ويلحقه بضده كقوله: (الحق)(11) و(الباطل) (12) , والغريب في الأمر أنه ابتداء من اللفظ الخامس والعشرين تصبح كل الكلمات عنده معطوفة على بعضها , و ذلك باستعمال حرف الواو كقوله

:والحدّ(13), و (الرسم)(14), و (العلم)(15) و (الاعتقاد)(16) وهكذا إلى أن يصل آخر لفظ في هذا الترتيب و هو(الطبيعة)(17).

و يبدو أن هذا العطف الذي خص به ابن حزم ألفاظا من دون أخرى له دلالة اللغوية والمعجمية , ومن ذلك ربط بمعنى واحد بين لفظتين أو عدة ألفاظ كقوله "والفرض و الواجب واللازم و الحتم : أسماء مترادفة تقع بمعنى واحد على كل ما استحق تاركه اللوم , واسم المعصية والحرام والمحظور و الذي لا يجوز والممنوع , عبارات مترادفة أيضا تقع بمعنى واحد على ما استحق فاعله اللوم"(18) و قوله " و الدليل ما استدلّ به , وقد يكون برهانا, و قد يقع اسما لكلّ شيء ذلك على معنى كرجل ذلك على طريق ونحو ذلك "(19). وقوله "الحجة هي الدليل نفسه , وقد تكون برهانا أو إقناعا أو شغبا"(20).

و قد يكون القصد من ذلك العطف , ذكر اللفظ وضده : "الأمر: إلزام المأمور عملا"(21) وقوله:" و التّهي: إلزم المنهيّ ترك عملا"(22).

و قد يكون القصد من هذا العطف أيضا حصر ألفاظ من مصدر واحد بغاية التكامل المعنوية كقوله:"والبيان : كون الشيء في ذاته ممكنا أن يعرف بحقيقته من أراد علمه" (23) ، وقوله " التّبين و الإبانة: فعل المبين و هو إخراج المعنى من الإشكال إلى إمكان الفهم بحقيقة , والتّبين فعل نفس المتبين للشيء في فهمنا إيّاه, وهو الاستبانة أيضا, والمبين هو الدال نفسه"(24) .

و قد تكون الألفاظ المعطوفة بغية التكامل المعنوي في هذا العمل غير مشتقة من مصدر واحد كقوله:" والنّبوة : اختصاص الله عزّو جلّ من شاء من الناس بالإنباء بما ليس في قوة نوعهم أن يعرفوه حتى يعرفوا به , و ليس ذلك لأحد بعد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم , وخاتم أنبيائه عليهم السّلام "25", و قوله " و الرّسالة زيادة معنى على النبوة , وهو أن يأمر الله تعالى النبي بإنذار غيره و التبليغ إليهم "(26).

و هكذا فإنّ ابن حزم قد ربط بين واحد وخمسين لفظا بوساطة الواو ، أي: من اللفظ الواحد والخمسين وإلى اللفظ السادس والسبعين - في حين نجده قد أهمل الأربعة والعشرين الأولين - أي من اللفظ الأول و إلى اللفظ الرابع و العشرين.

وعندما نعود إلى معجمية هذه المصطلحات نلقيها موزعة على تسعة عشر حرفا من حروف الهجاء , وذلك بحسب أوائل الأصول , وهو توزيع يمثل ما نسبته 67, 85 % من مجموع حروف المعجم ونستطيع أن نتبين ذلك بالعدد و الحرف في الجدول الآتي :

عدد الألفاظ	الحرف	عدد الألفاظ	الحرف
2	الصاد	17	الألف
1	الطاء	4	الباء
4	العين	6	التاء
3	الفاء	2	الجيم
1	القاف	4	الحاء
4	الكاف	3	الخاء
2	اللام	4	الذال
5	الميم	3	الراء
6	النون	1	السين
		4	الشين

و انطلاقا من هذا الجدول البياني يظهر أن الألفاظ التي جمعها ابن حزم لم تستغرق كل الحروف العربية , خاصة إذا علمنا أن منتج المتكلمين في هذا الشأن كان كبيرا . ولا يستبعد أن يكون قد أهمل جانبا وفيرا منها , وحثتنا في ذلك , أنه لم يجزم بعددية هذه المصطلحات , ويبدو ذلك واضحا في عنوان هذا الفصل حيث نجده يحمل كلمة ألفاظ على النكرة ولا يعرفها فيقول: "تفسير ألفاظ تجري بين المتكلمين في الأصول" (27) . وهذا ما نستخلصه أيضا من العنوان الثاني لهذا الفصل في كتاب الإحكام حيث يقول: "في الألفاظ الدائرة بين أهل النظر" (28) ، و لعل حرف (في) هاهنا دال على الانتقاء وليس على الجرد الكلي.

ومهما يكن من أمر تصرف ابن حزم في هذه المصطلحات , فإن ما نقه منها, لا يخلو من أهمية علمية في حقول معرفية مختلفة , يمكن تبنيها بالرجوع إلى متن هذا الفصل ومن ذلك :

أولاً: الحقل الديني : و نجد فيه تفسيره للفظ النبوة والرسالة والكفر والإيمان والشريعة والنية

...

ثانياً: الحقل القرآني: ونجد فيه تفسيره للفظ النص والتأويل , والأمر, والنهي والنسخ ...

ثالثاً : الحقل الفقهي : ونجد فيه تفسيره للفظ الإجماع والخلاف , والسنة والبدعة , ودليل الخطاب , والاستنباط والقياس و الاجتهاد و الرأي .

رابعاً : الحقل الأخلاقي : ونجد فيه تفسيره للفظ الصدق والكذب والحق والباطل والطبيعة والعناد.

خامساً: الحقل اللغوي : ونجد فيه تفسيره لمصطلح اللفظ , واللغة , والعموم والخصوص والمجمل وغيرها.

سادساً : الحقل البلاغي : ونجد فيه تفسيره للفظ الكناية , والمجاز , والتشبيه , والمتشابه , و البيان والتبيين و لإبانة.

سابعاً : الحقل الدلالي : ونجد فيه تفسيره للفظ الدلالة والدليل والبدال والاستدلال والإشارة .

ثامناً : الحقل الفلسفي: ونجد فيه تفسيره للفظ العقل والحدّ والرسم والاعتقاد, والبرهان , والحجّة والإقناع والاستدلال.

و يبدو أن ابن حزم في أثناء تفسيره لهذه الألفاظ قد اعتمد على مخزونه اللغوي والمعرفي فحسب , وبرهان ذلك أنه لم يشر في متن هذا الفصل إلى رأي من آراء المتكلمين , ولم يذكر واحدا منهم كمثال أو حجة , ولعل هذا العمل منه كان تحدياً لأهل الباطن , وعلى اعتبار أنه كان ظاهرياً لا يميل إلى التقليد والقياس و الرأي. ويلاحظ في تفاسير

الألفاظ أن ابن حزم قد اعتمد في تأسيس معاني بعضها على القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو الشعر العربي القديم , غير أن تلك الألفاظ قليلة جدا بالمقارنة مع عددها ال إجمالي , إذ لا تتجاوز ثمانية ألفاظ , ويمكننا تبين ذلك في الجدول الآتي:

الألفاظ المؤسسة	بالقرآن الكريم	بالحديث الشريف	بالشعر العربي القديم
اللفظ	×		
الخلافا	×		
البدعة		×	
المجاز	×		
الشريعة	×		×
اللغة	×		
الكفر	×		×
العقل	×		

وعليه تشكل الألفاظ ذات المعاني المؤسسة بالقرآن الكريم والحديث الشريف والشعر العربي القديم نسبة مئوية تقدر ب 6,08% من مجموع الألفاظ المثبتة في هذا الفصل, وهي موزعة كالأتي :

أ- خمسة ألفاظ مؤسسة بالقرآن الكريم فقط .

ب- لفظتان مؤسستان بالقرآن الكريم والشعر .

ج- لفظة واحدة مؤسسة بالحديث الشريف , فقط .

وبغض النظر عن طبيعة التأسيس , فقد جاءت الألفاظ كلها متفاوتة في الشرح و التفسير , إذ منها الذي استغرق شرحها فقرة كاملة كلفظة العقل(29) ومنها ما جاء تفسيرها في كلمتين اثنتين كلفظة الصواب التي فسرها ب: إصابة الحق (30). ومع ذلك فإن تلك الألفاظ لا تخلو من أهمية لغوية ومعرفية, إذ باستطاعة القارئ والباحث أن يجدا فيها مبتغاهما الديني و الفقهي و الفلسفي واللغوي و الأخلاقي وغير ذلك كثير, وهي في الأخير تعكس ثقافة ابن حزم الموسوعة التي اخذ فيها من كل علم بطرف.

الإحالات

* هو أبو محمد علي بن سعيد بن حزم الوزير الفقيه الظاهري ، ولد بقرطبة سنة 384 ÷ ، وتوفي بها سنة 456 ÷ . له مؤلفات كثيرة و متنوعة منها كتاب طوق الحمامة في الالفه والألاف , و الفصل في الملل و الأهواء و النحل وغيرها. ينظر : الجذوة للحميدي . و الذخيرة لابن بسام ، وفتح الطيب للمقري .

- 1- ينظر رسائل ابن حزم الأندلسي ، تحقيق د.إحسان عباس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ط1، 1983م ، 4/ (هـ) ، ص409.
- 2 المصدر نفسه ، (هـ 1) ، ص 409.
- 3 ينظر : المصدر نفسه ، 4/409 .416.
- 4 ينظر : المصدر نفسه ، 4/409.
- 5 ينظر : المصدر نفسه ، 4/413.
- 6 ينظر : المصدر نفسه ، 4/414.
- 7 ينظر : المصدر نفسه ، 4/413.
- 8 ينظر : المصدر نفسه ، 4/415.
- 9 ينظر : المصدر نفسه ، 4/414.
- 10 ينظر : المصدر نفسه ، 4/414.
- 11 ينظر : المصدر نفسه ، 4/414.
- 12 ينظر : المصدر نفسه ، 4/415.
- 13 ينظر : المصدر نفسه ، 4/413.
- 14 ينظر : المصدر نفسه ، 4/413.
- 15 ينظر : المصدر نفسه ، 4/413.
- 16 ينظر : المصدر نفسه ، 4/413.
- 17 ينظر : المصدر نفسه ، 4/416.
- 18 ينظر : المصدر نفسه ، 4/415.
- 19 ينظر : المصدر نفسه ، 4/413.
- 20 ينظر : المصدر نفسه ، 4/413.
- 21 ينظر : المصدر نفسه ، 4/413.
- 22 ينظر : المصدر نفسه ، 4/413.
- 23 ينظر : المصدر نفسه ، 4/414.

24. ينظر : المصدر نفسه ، 414/4.
25. ينظر : المصدر نفسه ، 414/4.
26. ينظر : المصدر نفسه ، 414/4.
27. ينظر : المصدر نفسه ، 409/4.
28. الإحكام 35/1.
29. رسائل ابن حزم ، 412/4.
30. ينظر : المصدر نفسه ، 416/4.